

247976 - الندم: ركن التوبة الأعظم.

السؤال

قررت التوبة ، حيث تركت المعصية ، وعزمت على عدم العودة ، إلا أنني لم أجد الندم في قلبي ، فكيف أحصل الندم ، حيث من الصعب تحقيقه ؛ لأن الندم ليس بفعل ، وليس في استطاعة المكلف ؛ لأنه انفعال لا فعل ، والانفعالات ليست بالاختيار، فما وجه التكليف بالندم ، وهو غير فعل للمكلف ، ولا مقدور عليه ؟ وهل ادعو الله أن يقذف الندم في قلبي ؟

الإجابة المفصلة

شروط التوبة الصحيحة هي:

- 1 - الإقلاع عن الذنب.
 - 2 - الندم على ما فات.
 - 3 - العزم على عدم العودة إليه.
- وإذا كانت التوبة من مظالم العباد في مال أو عرض أو نفس ، فتزيد شرطاً رابعاً، هو: التحلل من صاحب الحق ، أو إعطاؤه حقه.

انظر لمعرفة حقيقة التوبة وشروطها السؤال رقم : (13990) ، والسؤال رقم: (182767) .

والندم شرط رئيسي أو هو ركن التوبة الأعظم ، ولهذا قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ) وصححه الألباني في "صحيح ابن ماجة".

حتى قال بعض أهل العلم :

" يَكْفِي فِي التَّوْبَةِ تَحَقُّقُ النَّدَمِ ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الْإِقْلَاعَ عَنِ الذَّنُوبِ ، وَالْعَزْمَ عَلَى عَدَمِ الْعُودِ؛ فَهَمَّا نَاشِئَانِ عَنِ النَّدَمِ لَا أَضْلَانِ مَعَهُ " .

انظر: "فتح الباري" (471 /13) .

وقال القاري رحمه الله:

" (النَّدَمُ تَوْبَةٌ) إِذْ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا بَقِيَّةُ الْأَرْكَانِ مِنَ الْقَلْعِ وَالْعَزْمِ عَلَى عَدَمِ الْعُودِ، وَتَدَارِكُ الْحُقُوقَ مَا أَمَكْنَ... وَالْمُرَادُ النَّدَامَةُ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَعْصِيَةٌ لَا غَيْرَ " .

انتهى من "مرقاة المفاتيح" (1637 /4) .

ومعنى "الندم" هو الحزن ، أو شدة الحزن . كما في "لسان العرب" (1/79) ، (6/4386) .

فإنه فسّر "الندم" بالأسف ، ثم فسّر الأسف بالحزن أو المبالغة في الحزن .

وفي كلام القاري السابق فسّر الندم بأنه "الندامة -أي : الحزن - على فعل المعصية من حيث إنها معصية لا غير".
ومعنى هذا : أن كل من حزن لكونه فعل المعصية ، فقد حصل منه الندم المقصود في التوبة .

فإذا كان هذا الندم صادقا فإن العاصي سوف يترك المعصية ، ويعزم على عدم فعلها مرة أخرى ، وبهذا تكمل التوبة
وتتحقق شروطها كلها .

وعلى هذا ؛ فكل من ترك المعصية لكونها معصية لله تعالى - أي خوفا من الله وطاعة له- وكره وقوعه فيها ،
ومعصيته لرب العالمين ، وأحب أن لو كان قد أطاع الله ، بدلا من معصيته ، وعزم على عدم فعلها : فقد حصل منه
الندم قطعاً ، وهو الذي حمل على ترك المعصية .

قال الغزالي رحمه الله في "إحياء علوم الدين" (4/4) :

"اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل.
فالعلم الأول ، والحال الثاني ، والفعل الثالث.

والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث ، إيجاباً اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت.

أما العلم م، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب .

فإذا عرف ذلك معرفة محققة ، بيقين غالب على قلبه : ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن
القلب مهما شعر بفوات محبوبه : تألم، فإن كان فواته بفعله ، تأسف على الفعل المُفوّت، فيسمى تألمه بسبب فعله
المفوت لمحبوبه ندماً .

فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له
تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال .

أما تعلقه بالحال ، فبالترك للذنب الذي كان ملابساً .

وأما بالاستقبال ، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر .

وأما بالماضي ، فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء ، إن كان قابلاً للجبر .

... فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول،
فيطلق اسم التوبة على مجموعها .

وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع
المتأخر، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام: (الندم توبة) إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره ، وعن عزم
يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه ، أعني ثمرته ومُثمره" انتهى .

وقال أيضاً (3/144) :

"والخوف إذا كان من فعل ماضٍ أورث الندم ، والندم يورث العزم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الندم توبة)" انتهى .

وبهذا يتبين أن تركك للمعصية وعزمك على عدم العودة إليها دليل على حصول الندم في قلبك .
فدع عنك هذه الوسواس الشيطانية التي يريد الشيطان من ورائها أن يوهمك بأنك لم تتب ، أو أن التوبة مستحيلة ، أو أنك لن تقدر عليها ، فيوقعك ذلك في القنوط واليأس وتظن أن باب التوبة قد أغلق دونك .
نسأل الله تعالى أن يعيدنا جميعاً من الشيطان الرجيم ، وأن يوفقنا للتوبة النصوح .
والله أعلم .